

## صفات اليهود الخلقية كما صوّرت في السيرة النبوية

اهتم ابن هشام، في تعرضه لمواقف اليهود المختلفة التي ذكرها في كتابه أن يؤكد على مسؤوليتهم عن كل ما لحق بهم من عقاب وعذاب، وكان حاداً في ذكر بعض المواقف مثل ذكره لما قيل على لسان الراهب بحيرا عندما زاره محمد ﷺ وهو في الثانية عشرة من العمر برفقة عمه أبي طالب موجهاً الكلام لأبي طالب قائلاً: "إرجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا ما عرفت ليبغنه شراً فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم" (١).

وقد اهتم ابن هشام أن يرسم للرسول الصورة المثالية المحبة للسلام والحوار والتعاون فيبين أن الرسول - يوم نزل عليه الوحي، وبعد تأكيد ورقة بن نوفل لصدق هذا الوحي بقوله: "إنه الناموس الذي نزل على موسى" (٢) - لم يتصور أن القوم الذين تخيل أنهم أقرب الناس إليه في العقيدة والإيمان، وأعني بهم اليهود، سيكونون الخصم العنيد والأكثر خطراً على نجاح دعوته. فالرسول كان كغيره من أبناء مكة يعرف ما يتناقله الناس من أقوال اليهود وقصصهم حول النبي المنتظر الذين ينتظرون ظهوره قريباً، وكان كالمهتمين بشؤون الناس والحياة والعالم

يحفظ بعض ما ورد في كتب اليهود المقدسة خاصة ذلك القسم المتعلق بقصص أنبيائهم .

وقد جاءت السور المكيّة لتعزز من مكانة اليهود وإعزاز الرب لهم (٣) ضمن فترة زمنيّة كانوا فيها ممثّلين لأوامر الله . لقد كان النبي محمد يرى أنّ مهمّته في بداية الدعوة تحذير قومه من سوء العاقبة يوم القيامة ، الذي ورد ذكره أيضاً في كتب اليهود والنصارى المقدسة (٤) .

وبرز في السور المكيّة تقديم النبي موسى على إبراهيم بسبب أهميته كنبي كان رائداً للرسول ، بينما يبدو إبراهيم واحداً من أنبياء كثيرين (٥) . ويبدو أن إبراهيم لم يرسل للعرب لأن الرسول أرسل لشعب لم يعرف الرسل ، كما لا تذكر أية علاقة بين إبراهيم واسماعيل والكعبة (٦) . وإن كان هذا الموقف يرفض في أيامنا هذه من قبل العديد من الباحثين ويتنافى مع ما ثبت من الحقائق التاريخيّة .

ويهتم ابن هشام في السيرة أن يؤكد على مدى الجهد الذي بذله الرسول للتقرب من اليهود قبل هجرته للمدينة وذلك بمحاولاته الإتصال بزعمائهم عن طريق مبعوثية من المسلمين ، أو عن طريق الإيعاز لهم باحترام شعائر اليهود ومراعاة مقدساتهم ومراكزهم (٧) . حتى أن البعض يرى أن اختيار الرسول بيت المقدس قبلة للمسلمين وقت الصلاة ، ويوم عاشوراء لصيام

المسلمين ، وفرض بعض المحرمات التي تحرمها الكتب اليهودية المقدسة ليس إلا رغبة من الرسول لإثبات ما يقوله من تطابق الديانتين ، أن لا خلاف ديني بين ما يدعو إليه وما يؤمن به اليهود . كذلك اهتم أن يحافظ على استقلالهم بأن عاملهم بشكل مساو للمسلمين وعرفهم كأمة مستقلة(٨) ، وحلل للمسلمين طعام الذين أوتوا الكتاب ومحصناتهم(٩) . حتى أنه لفترة وافق على عدم دخول اليهود في الإسلام واكتفى بقيام حلف بين المسلمين واليهود يعتمد على التفاهم بينهما ، دون أن يطلب من اليهود التخلي عن عقيدتهم أو أن يعترفوا بمحمد كنبى طلب إليه أن يبلغهم رسالة الهية(١٠) .

ويجتهد ابن هشام ليؤكد أن الرسول ، رغم كل الجهود الجبارة التي حاولها لاستمالة اليهود للدين الجديد ، وللعيش بسلام معه ، فانهم لم يغيروا موقفهم ، وراحوا يعلنون انتقاداتهم اللاذعة لنبوته ، ويسخرون من كل خطوة يقوم بها مثل موقفهم منه بعد تغيير قبلة المسلمين وقت الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة في مكة . ويرى بروكلمان أن رد فعل الرسول كان بالتشدد مع اليهود فعين مناديا للصلاة يعرف بالموذن وفرض صوم شهر رمضان ، واتخذ يوم الجمعة يوماً مقدساً(١١) . وعمل على إعلاء مكانة إبراهيم وجعله أباً للأنبيا وأنه أول مسلم وأنه أبو العرب ، وعمل أيضاً على الفصل النهائي بين المسلمين واليهود

وإعلاء مكانة المسلمين على غيرهم من الأديان الأخرى (١٢).

بينما الحقيقة هي أن تبديل القبلة من بيت المقدس إلى مكة كان بنزول الآية القرآنية " قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون " (سورة البقرة، آية ١٤٤)، وحتى يرد على انتقاد المعارضين والناكرين نزلت الآية القرآنية " سيقول السفهاء من الناس ما وليهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " (سورة البقرة، آية ١٤٢). وأيضاً صيام شهر رمضان كان بأمر رباني حيث نزلت الآيات القرآنية التي تقول " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون " (سورة البقرة، آية ١٨٣). وقوله تعالى : " شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون " (سورة البقرة، آية ١٨٥). كذلك نزلت الآية التي تؤكد على خصوصية يوم الجمعة بقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون " (سورة الجمعة، آية ٩)

هكذا تدرج معنا ابن هشام ليثبت أنه لم يكن أمام الرسول  
والمسلمين غير ما فعلوه مع اليهود حيث قام بإخراج قبيلتي قينقاع  
والنضير من المدينة، وبقتل رجال بني قريظة وسبي نساءها وتقسيم  
أموالها .

ويلاحظ المتبع لكلام ابن هشام في السيرة النبوية ، أنه يهتم  
في دمع اليهود بكل الصفات السلبية وخاصة الخلقية منها ، وأن  
يظهرهم في صورة نقيضة لما يتعارف عليه الناس في مجتمعات  
ذلك العهد ، وكأنهم نقيض لكل ما اعتز به العربي وحفظه ، ولا  
يخفي على القارئ أن ابن هشام جمع الروايات والقصاص  
والأحاديث المتفرقة وحاول إسباغ الحقيقة عليها بما كان يضمنه من  
آيات قرآنية خلال سرده للرواية .

ومن أهم الصفات التي أبرزها في اليهود :

### ١ - إنكار الحقيقة التي كثيراً ما بشروا بها :

لقد بين ابن هشام في عدة مواضع من السيرة أن اليهود  
كانوا من الذين بشروا بقرب ظهور النبي ، والكثير منهم انتظروه  
بفارغ الصبر لأنه رأى قي ظهوره نصراً لليهود وسنداً لهم ضد  
خصومهم ، خاصة من الأوس والخزرج في المدينة . ويذكر كيف  
أنهم تنكروا للرسول بعد نزول الوحي عليه وقالوا إنه ليس الذي  
قصدوه وانتظروه ، دون أن يفسر سبب رفضهم وذلك ليؤكد

صدقَه فيما يتَّهمهم به ، ويذكر قصة الرجل من بني الأشهل الذي كان يُؤكِّد لمحدثيه قرب ظهور نبي مبعوث من نحو مكة أو اليمن ، وإذ بعثَ اللهُ محمداً فإنَّ هذا الرجل قال : إنه لا ينكر ما قال عن بعث نبي قريب ولكن هذا ليس محمداً (١٣) . وقصة ابن الهيبان وتبشيرَه بقرب ظهور النبي وكيف أن بني قريظة رفضوا الإنصياح لوصيته واتباع النبي بقولهم انه ليس الذي قصده ابن الهيبان (١٤) ، ويستشهد ابن هشام بقصص كثيرة أخرى كلها تؤكد نفس التهمة .

## ٢- الكذب والزيف :

ويكرر ابن هشام ذكر هذه الصفة والصاقها باليهود ، فمثلاً يذكر أن ابن سلام عندما أعلن إسلامه ، طلب من الرسول أن لا يخبر أحداً عن إسلامه إلا بعد أن يستمع إلى كلام اليهود فيه ، لأنهم في رأيه قد يزيفون الحقيقة إذا علموا ، فهم قوم بهت (١٥) .

ويذكر ما قاله حبرهم وعالمهم مخيرق عندما دعاهم لنصرة الرسول في غزوة أحد لأنه في رأيه نبي صدقت دعوته ، ولكن اليهود اعتذروا عن تلبية الدعوة لأن اليوم يوم سبت ولا يمكنهم العمل في يوم سبت . فغضب مخيرق وقال لهم : لا سبت لكم . ثم أخذ سلاحه وخرج وحارب مع المسلمين حتى استشهد في غزوة " أحد " وقد أوصى بأمواله للرسول (١٦) .

## ٣- لا أمان لهم ولا يحفظون العهود :

ويبرز ابن هشام هذه الصفة بشكل بارز في عدة مواضع

من السيرة لتأكيد عدالة ما نزل على اليهود من العقاب . ولتبرير ما قام به الرسول والمسلمون ضدهم . فمثلاً يأتي بذكر موقف بني قينقاع من الرسول ودعوته لهم بعد بدر لقبول الإسلام ، وما حدث في حيهام مع المرأة العربية ، وما أدى إلى حصارهم وجلائهم ، ويجتهد ابن هشام ليؤكد أن بني قينقاع هم الذين نقضوا العهد وكانوا بذلك أول من فعل ذلك وحاربوا المسلمين ما بين بدر وأحد (١٧) .

كذلك كان نقض بني النضير للعهد باستقبال زعيمهم لأبي سفيان الذي جاء مهاجماً المدينة ودخلها متستراً ليستمع إلى أخبار المدينة من فم زعيم بني النضير (١٨) . ويذكر أيضاً ما قيل عن تأمر بني النضير لقتل الرسول عندما جاءهم يطلب دفع حصتهم بديّة القتيلين (١٩) ، ثم نقض بني قريظة للعهد بتأمرهم مع حبي بن أخطب والموافقة على التأمر مع المشركين ضد الرسول أثناء حصار المشركين للمدينة في غزوة الخندق . (٢٠) وغير ذلك من الروايات والقصص كثير .

#### ٤ - وصفهم بالحسد :

وقد أبرز ابن هشام هذه الصفة في الكثير من المواضع مثل قصته عن حبي بن أخطب وأخيه ياسر بأنهما كانا من أشد يهود للعرب حسداً (٢١) . وقصة الرسول مع ابن صوياء الذي قال مصارحاً الرسول : " والله يا أبا القاسم أنهم ليعرفون أنك لنبي

مرسل ولكنهم يحسدونك" (٢٢) . واستشهد بالعديد من الآيات القرآنية ليؤكد صدق هذه الصفة ، مثل قوله تعالى " ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق " (٢٣) .

#### ٥ - إثارة الفساد والخلاف بين الناس :

اهتم ابن هشام بإبراز هذه الصفة ليدل على مدى تسامح الرسول وتغاضيه عن كثير من المضايقات والتحديات التي كان يلقاها من اليهود ومن ثم ليبرر نفاذ صبره في معاقبته لهم ، مثل ما ذكر من قصة الشاب اليهودي الذي ذكر شباب الأوس والخزرج المجتمعين بيوم بُعث وما حدث بعد ذلك من إثارة النزاع بينهم ، الأمر الذي استدعى تدخل الرسول لفضّ الخلاف (٢٤) .

#### ٦ - اتّهامهم بالغرور :

وهذه الصفة اجتهد ابن هشام في تشبيتها في اليهود ليبين أن الرسول كان مرغماً على معاقبتهم وحرّبهم وطردهم بعد أن فشلت كل محاولاته للتقرب منهم والعيش معهم بسلام .  
والقصص التي يذكرها ابن هشام كثيرة منها على سبيل المثال قول اليهود للرسول عندما جاءهم في المدينة " انا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء " (٢٥) . وحادثه فنحاص مع أبي بكر الذي تناول في كلامه على الله والرسول وأظهر فقر الله إليهم مما أغضب أبا بكر وجعله يضربه (٢٦) ، ومثل قولهم " بأنهم أبناء الله



وأحباؤه" (٢٧) . وخبر رفاعة بن زيد بن الثابت من عظماء اليهود الذي كان إذا كلم الرسول لوى لسانه وقال : " يا محمد أرعنا سمعك حتى نفهمك " ، ثم يطعن في الإسلام ويعيبه (٢٨) .  
" وموقف الغرور الذي برز في جواب بني قينقاع للرسول عندما جاءهم بعد غزوة بدر يطلب منهم أن يقبلوا دعوته لهم للإسلام حيث قالوا : يا محمد ، أنك ترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس " (٢٩) .

#### ٧- اتّهامهم بالكفر :

لقد عمل ابن هشام كل جهده لوصم اليهود بكل الصفات السلبية التي ورد ذكرها سابقاً ، ولكنه لم يكتف بذلك وإنما أراد تبرير كل المظالم التي لحقت بهم على يد الرسول والمسلمين ، فرأى أن يصممهم أيضاً بتهمة الكفر ، واستعان بالعديد من الآيات القرآنية ليؤكد صدق اتّهامهم مثل قوله تعالى : " فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين " (٣٠) .

#### ٨- أنكارهم لنبوة داود وسليمان ورفضهم لنبوة الرسول وتفضيلهم للشرك :

لم يكتف ابن هشام بإيراد مواقف اليهود الراضية والمنكرة لنبوة محمد ، وإنما يأتي بأمثلة لإنكار اليهود لنبوة داود وسليمان وكيف قالوا " إن سليمان لم يكن إلا ساحراً " (٣١) . ومن

المعروف أن اليهود لا يرون في الملك داود وإبنة سليمان أنبياء .  
كذلك يبرز ابن هشام كيف أن اليهود كانوا يُفضّلون عبادة الشرك  
على عبادة الله ، وذلك بإيراده قصة ما نسب إلى اليهود من قولهم  
على سؤال رجال من قريش لهم : " حول من أفضل دين قريش أم  
دين محمد؟ فكان الجواب : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى  
منه ومن اتبعه " (٣٢) . ويستشهد بقوله تعالى " ألم تر إلى الذين أتوا  
نصيياً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوث " (٣٣) ، ليثبت صحة  
اتهامه لهم .